سالومي .. رتشارد شتراوس

Richard Strauss SALOME

«سالومي» دراما موسيقية في فصل واحد. ترجمها إلى الألمانية «هدفيج لاخمان»Hedwig Lachmann من مسرحية للكاتب الأيرلندي «أوسكار وايلد» Oscar Wilde، ووضع موسيقاها الموسيقى الألماني «رتشاد شتراوس» Richard Strauss. وقد قامت لأول مرة في «درسدن» عام ١٩٠٥

شخصيات الأوبرا:

نارابوث: ضابط سوري شاب — Narraboth

يوحنا المعمدان — Jochanaan

سالومي: ابنة الملكة — Salome

هيرودس: ملك ولاية «اليهودية» — Herod

هيروديا: زوجته ووالدة سالومي — Herodias

خمسة من اليهود

اثنان من الناصريين

زمن الأوبرا: عام ٣٠ قبل الميلاد.

المكان: ولاية «اليهودية» بفلسطين.

المنظر - الشرفة الكبرى بقصر الملك هيرودس

يجوس القمر بين طوايا الغمام، ثم لا يلبث أن يخرج إلى الأفق ساطعا مضيئا كأنه كرة من النور تتقاذفها السحب، في حين يمشي الضابط الشاب نارابوث متخطرا في الشرفة، يرمي ببصره إلى القاعة التي أقيمت فيها الوليمة. وإذ يقع بصره على الأميرة سالومي يقول في نجواه:

– كم هي رائعة الليلة!

وغير بعيد من نارابوث يقوم جنديان بالحراسة. وإلى الجانب الآخر يقف أحد خدم الملكة هيروديا. ويقول الخادم للضابط محذرا:

– لقد أطلت النظر إلى سالومي! إن شيئا مخيفا سوف يحدث!

وفجأة يسمع صوت صارخ مفزع ينبعث من مستودع مياه فوق الشرفة:

– سوف يأتي بعدي من هو أعظم مني. وعندما يأتي ستبصر العيون التي لا ترى، وتسمع الآذان التي لا تعي!

ويسأل أحد الجنود وقد اعترته الدهشة:

– من ذا الذي يتكلم؟

– رجل قديس من الصحراء اسمه يوحنا.

ويتملك الضابط نارابوث اضطراب ظاهر ثم يصيح وهو يقترب من الجنود:

– لقد غادرت الأميرة المائدة، وها هي ذي آتية!

وتظهر سالومي في الشرفة. إنها آية رائعة من آيات الجمال، تنبض بالفتنة والحيوية، وتزهر في أفخر رداء، وتغمغم الأميرة قائلة:

– لا أستطيع البقاء في الداخل. فإن زوج أمي هيرودس لا يحول نظره عني!

وتبقى سالومي في الشرفة تستنشق نسمات الليل المنعشة. غير أن هدوءها لا يلبث أن يقطعه صوت يوحنا وهو يدعو إلى تعاليم المسيح.

وهنا تتوجه إلى الجنود وتقول لهم في صوت حازم.

– أحضروا إلى هذا الرجل!

– إننا لا نجرؤ، فذاك محظور علينا!

ولكن الأميرة التي لا تريد أن يثنيها عن عزمها شيء، تنظر إلى الضابط نارابوث نظرة يتساقط منها الإغراء وتقول له:

– أنت ستفعل هذا من أجلي يا نارابوث! وغدا، عندما أكون في طريقي إلى مضجعي، ربما ابتسمت إليك!

ولا يسع الضابط الشاب إلا أن يستسلم لرغبتها ويخالف أمر هيرودس، ومن ثم يصدر أمره إلى يوحنا القابع داخل صهريج المياه بأن يغادره على الفور، ويخرج يوحنا في حركة وليدة من صومعته المظلمة، إلى الشرفة التي ينساب عليها ضوء القمر.

وفي رداء خشن متواضع يقف القديس على حافة الصهريج شاحب الوجه، مجمد الشعر. وإذ يشعر بسالومي تحملق فيه يسأل:

– من هذه المرأة؟

وتجيب الأميرة:

– سالومي، ابنة هيروديا!

– إليك عني!.. فلقد ملأت أمك الأرض عارا!

وتنصت سالومي في شغف زائد إلى كلام يوحنا. ثم تتوسل:

– تكلم ثانية يا يوحنا! إن صوتك ينساب إلى أذني كالموسيقى!

وهنا تتأجج نار الغيرة في قلب الضابط الشاب، فيطلب من الأميرة في ضراعة أن تعود إلى القاعة التي فيها الوليمة. غير أن سالومي تتجاهله وتوجه كلامها إلى يوحنا:

سالومي: يوحنا! لا بد أن أقبل شفتيك!

وهنا لا يقوى الضابط الشاب على احتمال ما يرى، وكأنه مرجل يغلي بالانفعال، فيطعن نفسه بخنجره طعنة يسقط على أثرها بين يوحنا وسالومي وقد فارق الحياة!

غير أن سالومي لا تزال مندفعة في تيار شهواتها الجارف وتصر على تقبيل يوحنا. فيقول لها والجزع يرعش أطرافه:

يوحنا: يا ابنه الخطيئة، إن أمامك فرصة واحدة للخلاص. اذهبي وابحثي «عنه» على بحر الجليل واطلبي منه الصفح.

وتثبت سالومي عينيها في وجه يوحنا ثم تقول له بصوت ثمل يبعث على الإغراء:

سالومي: شفتيك يا يوحنا! لابد أن أقبل شفتيك!

ويصيح يوحنا في احتجاج صارخ:

– مطلقا! مطلقا! انك ملعونة يا سالومي!

ثم يعدو مسرعا إلى صومعته ويختفي فيها بعد أن يغلق دونه بابها الحديدي.

لكن سالومي تلحق به وتقف عند حافة الصومعة. وإذ ترمي ببصرها إلى الظلام الحالك الذي يملأها تطلق ضحكة مغصوبة ساخرة.

وهنا تسمع أصوانا قادمة من قاعة الاحتفال فتختبئ وراء الصهريج. ويظهر هيرودس في الشرفة وهو يترنح من فرط الشراب وقد سارت إلى جانبه زوجته هيروديا ومن ورائها بعض الأتباع.

ويصيح هيرودس متسائلا:

– أين سالومي؟ لماذا لم تعد إلى الوليمة؟

وتجيب هيروديا محتدة:

– يجب ألا تنظر إلى ابنتي! إنك دائما تبحث عنها!

ولا يعبأ هيرودس باحتجاج زوجته فيجول ببصره عسى أن تقع عينه على بغيته. وفجأة يبصر نارابوث ملقى على الأرض وقد فارق الحياة فيرتد إلى الخلف مذعورا، ويخيل إليه أنه يسمع صوت أجنحة تخفق بسرعة.

وتقول له زوجته ساخرة:

– إنك مريض. دعنا ندخل القصر.

ويجيب هيرودس في انفعال ظاهر:

– لست مريضا!

لقد وقعت عينه على سالومي وهي مختبئة. ثم هو يتقدم منها ويدعوها إلى تناول الخمر معه. وإذ ترفض طلبه ينبعث صوت صارخ من أعماق الصهريج يتنبأ بانتهاء الشر.

وتصيح هيروديا خائفة:

– مره أن يصمت! لم لا تسلمه إلى اليهود؟

ويجيب هيرودس زوجته قائلا:

– لقد قلت لك من قبل أنه رجل مقدس رأى الله!

وتسود موجة من التذمر والاحتجاج بين أتباع هيرودس من اليهود:

– إن أحدا لم ير الله منذ زمن النبي إيليا!

ويقول اثنان من الناصريين من تلامذة المسيح:

– إن المسيح موجود على الأرض ويقوم بعمل المعجزات في «الجليل». ولقد أقام حتى الأموات!

ويتساءل هيرودس هامسا في خوف:

– أقام الأموات؟ إن هذا لا يجب أن يكون. إنني أمنعه! ومرة أخرى ينطلق صوت يوحنا في سيل من الغضب والوعيد.

وتصيح هيروديا إلى زوجها:

– مره أن يصمت!

غير أن هيرودس لا يعبأ بطلبها. فإن انتباهه موجه إلى سالومي وحدها.

هيرودس: ارقصي لي يا سالومي!

سالومي: وهل تمنحني أي شيء أطلبه؟

هيرودس: أي شيء!

وبعد أن تستخلص سالومي من هيرودس الوعد المطلوب تتأهب للرقص. وينهض هيرودس من على عرشه وكأنه ثمل من فرط النشوة التي طغت على جوارحه. ومرة أخرى يسمع صوت أجنحة تخفق بسرعة. ثم تحل برأسه الذي أثقله الشراب حمى ملتهبة تجعله يترنح في مشيته ويلقي بإكليل الزهر الذي يتوج جبينه.

وتتقدم الأميرة الراقصة وهي تميس في ثوب حريري يبهر الأنظار، تصاحبها في حركاتها الفاتنة موسيقى مثيرة ساحرة، ثم تبدأ في خلع ثيابها قطعة قطعة إمعانا في الإغراء.

وتقف سالومي لحظة أمام الصهريج الذي سجن فيه يوحنا. وإذ تخلع آخر ما تبقى على جسدها، تلقي بنفسها تحت قدمي هيرودس. ويسألها الملك:

هيرودس: أيتها الأميرة الفاتنة! اطلبي ما تشائين!

سالومي: إنني أطلب رأس يوحنا على طبق من الفضة!

ويصعق هيرودس لهذا الطلب.

هيرودس: كلا! أي شيء غير هذا. سوف أعطيك مجوهراتي الثمينة.. طواويسي البيضاء – حتى طنافس المعبد!

ولا يروق هذا الكلام الفاضح في نظر اليهود فيغادرون القصر.

وتصر سالومي على طلبها قائلة:

– أريد رأس يوحنا! لقد أعطيت عهدا أيها الملك!

– وبعد لأي يقبل هيرودس...

وترتسم ابتسامة سافرة على شفتي الملكة هيروديا التي طالما هاجمها يوحنا لاستهتارها. ثم تخلع من إصبع زوجها «خاتم الموت» وتسلمه إلى الجلاد!

وينزل الجلاد حاملا سيفه إلى حيث يوجد يوحنا، ثم يطبق على المكان سكون رهيب.

وفجأة تصيح سالومي:

– لم لا تضرب؟ أرسلوا جنودا آخرين!.. أحضروا إلي رأس يوحنا!

وبعد قليل تظهر يد الجلاد من أعلى الصهريج حاملة طبقا عليه رأس يوحنا!

وتصيح الأميرة في فرح جنوني:

– آه! سوف لا تقاسي شفتاك من تقبيلي يا يوحنا. فأنت الآن في عداد الأموات، وأنا – التي ما زلت حية – سوف أحقق رغبتي!

وهنا ينظر هيرودس إلى زوجته والذعر يقفز من عينيه:

– هيا، فلندخل القصر.

ثم ينادى عبيده ويأمرهم بإطفاء المشاعل. ويخيم على الشرفة ظلام وحشي دامس.. وينبعث صوت سالومي خافتا متهدجا مذبوحا:

– آه يا يوحنا! لقد قبلت فمك!.. وكان هناك طعم لاذع على شفتيك! ترى هل كان ذلك طعم الدم أم طعم الحب!

وتطغى على سالومي فكرة الانتصار فتقول في صوت مروع:

– ولكن ماذا يهم الطعم اللاذع؟ وماذا يهم الحب؟ يوحنا!.. لقد قبلت شفتيك!

ويجوس القمر بين طوايا الغمام، ثم يلبث أن يخرج إلى الأفق ساطعا مضيئا، فيكشف عن سالومي وهي تقبل رأس يوحنا.. وحينئذ يصيح هيرودس قائلا:

– اقتلوا تلك المرأة!

ويحيط الجنود بسالومي ثم يرفعون عليها سيوفهم فتسقط على الأرض.

ستار